

السحر والشعوذة والتنبؤ ببلاد المغرب الإسلامي: قراءة في الأسباب والمطيات

**Magic and sorcery and prediction in the Islamic Maghreb:
reading in the causes and means**

د. رضا رافع*

جامعة البويرة، r.rafa@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2021/06/15؛ تاريخ القبول: 2021/10/06؛ تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

يتناول المقال ظاهرة السحر والشعوذة والتنبؤ ببلاد المغرب التي عرفت البشرية منذ القديم، ودرسها علماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ، وكلهم ينتهون أن مردها نتاج إلى حاجات مشتركة من الناس، منبعه الخوف من الحاضر والمستقبل، أو تغيير الواقع إلى الأحسن، أو تفسير لظواهر خاصة.

ومن هذا المنطلق يقف هذا البحث على كثير من الأسباب الذاتية والموضوعية، التي أدت لانتشار ظواهر السحر والشعوذة والتنبؤ بين العامة والخاصة ببلاد المغرب، في القرون السابقة للفتح وبعدها، من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والعرقية والعقدية، مع التركيز على بعض المحطات التاريخية الهامة التي كانت فيها هذه الظواهر بارزة للعيان، وكيف صارت مطية لتحقيق أهداف كثيرة، سواء السياسية أو الاجتماعية أو الدينية والعقدية، وكذا نظرة ولاة الأمر لهذه الظاهرة، وكيفية التعامل معها، وطريق تغلغلها إلى البلاطات ومراكز صنع القرار، وتأثيرها وتأثرها، وكذا دراسة ذهنيات العامة والخاصة حول الظاهرة وسلوكاتهم تجاهها، وكيف صارت وسيلة للاسترزاق أو للوصول إلى أهداف دينية أو دنيوية.

الكلمات المفتاحية: السحر؛ الشعوذة؛ التنبؤ؛ المغرب الإسلامي؛ المطيات.

Abstract:

This article examines the ancient new phenomenon, known in the humanity since the daybreak of history, he worked on the study of the psychology, sociology, history, anthropologists, and all finish by that phenomenon of sorcery, as well as predictions, are only the product of the common needs of the persons, fright because of future, either to change reality for the best, or the interpretation of special phenomena, or the necessity of a complex human being also, and entered these phenomena to the population before Islam and stayed after him, but his presence varies and from a place to the other one every so often, and is considered (sixth and seventh century) important periode of this phenomenon, as exceeded is The social side was chosen at the End in the centres of catch of decision, certain, to read them in future and predict, what is case with the most part of the caliphs, their situation as their forefathers, so that it is not any more the prerogative of common persons than.

Keywords: magic; sorcery; prediction; Islamic Maghreb; objectives.

المقدمة:

تحتاج ظاهرة السحر والشعوذة وكذا التنبؤ في بلاد المغرب عموماً لدراسة معمقة، لاستجلاء ما خفي من أسرار هذه الظواهر، والتي انتشرت بين العامة والخاصة على حد سواء، ولعبت الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإثنية دوراً حاسماً في ظهورها وتطورها، ولكنّ الأکید أنّ ما وصلنا من ثنايا المصادر، على الأقل في الفترة الوسيطة عن هذه الظاهرة، لا يعكس وجودها الحاسم والمؤثر، والأدهى والأمر من هذا، أن المؤرخ يبقى رهين الرواية التاريخية الواحدة، والتي تبدو أحياناً غير مقبولة، وقد لا تسنح له بالمقارنة والاستنتاج، أو الإسقاط التاريخي، ولكن هذا لا يمنع من استثمار المادة الموجودة والاستئناس بها، ومحاولة استقرارها وتحليلها، والأسئلة بدءاً التي تطرح نفسها في هذا الموضوع:

هل هنالك فروق واضحة بين المصطلحات الشائعة بين العامة في مجال

السحر والشعوذة؟ وهل تغلغلت هذه الظواهر من العوام إلى الخواص؟

وهل كان السحر والشعوذة مطية لأهداف أخرى؟ وهل اختلفت نظرة الخاصة

إليه كما العامة؟.

تعريف السحر في اللغة والاصطلاح:

السحر في اللغة هو كل شيء خفي سببه⁽¹⁾ وفي الاصطلاح هو علوم بكيفيات استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية في التأثير على العناصر بمعين أو غيره، فالعلم الأول يسمى سحرا والثاني طلسمات⁽²⁾، وبالتالي فهو نوع من التخيل والحركة، وقد أكده القرآن الكريم في كثير من الآيات الكريمت، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.....﴾ [البقرة، 102].

فالسحر في تعريفه هو المخادعة والتأثير في عالم العناصر، بمقتضى قدرة محدودة، سواء بمعين من الجن، أو بأدوية ومركبات، أو باستعدادات خاصة لدى الساحر يكون قد تعلمها، وعرفه المعاصرون على أنه عبارة عن أمور دقيقة موغلة في الخفاء، يمكن اكتسابها بالتعليم، تجري مجرى التمويه والخداع، تصدر من نفس شريرة عالمة بالعناصر بالمباشرة أو بغير المباشرة⁽³⁾

ولم تبتعد معظم التعريفات عن هذا المعنى، وتتفق على أن السحر لا بد له من الاستعانة بقوى أخرى، لأن الإنسان لا يمكنه أن يخلق ولو ذبابة، مصداقا لآيات القرآن الكريم . كما أكدت السنة الشريفة تحريمه واجتنابه، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك والسحر...

ويظهر أن الحكمة من النهي عن إتيان الكهان أنهم يناقشون في الغيبيات، وقد يصادف بعضها الإصابة، فتأثر في كثير من النفوس والجهلة من الناس⁽⁴⁾، فيؤمنون بهم،

(1) عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط1، دار صادر، بيروت، 1988، ج4، ص102.

(2) عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1984، ص365.

(3) اسلام عبد الرحمن السكري، السحر بين الحقيقة والوهم، ط1، دار الكتب الجامعية الحديثة، بيروت، 1990، ص34.

(4) الكتاني عبد العي بن عبد الكبير، تبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة، دار ابن حزم، لبنان،

فيكفرون بذلك كفرا عظيما، كما أنهم بسحرهم يفرقون بين المرء وزوجه والأخ وأخيه، ويبعدون الإنسان عن ربه، فينبغي حسب ابن خلدون " أن تُحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول، لأن مزاولها عجزوا عن الكسب بالطرق المباحة فلجئوا إلى السبل المنحرفة⁽¹⁾

وزخرت كتب الفقه والرسائل والنوازل في مجملها إجابة للأسئلة التي يطرحها العامة، وذهب معظمهم حول عقوبة الساحر، وهي القتل دون استتابة، وهو قول الإمام مالك رحمه الله " الساحر كافر، يُقتل بالسحر ولا يستتاب، ولا تُقبل توبته، بل يتحتم قتله كالزنديق⁽²⁾.

بالنسبة لتاريخ هذه الفئة بالمغرب الإسلامي فغالبا ما يكتنفها الغموض والإبهام، لأن المؤرخين اعتبروا هذه الظواهر مروقا وخروجا عن الدين الإسلامي، لذلك نجد أنهم يتكتمون عن ذكر التفاصيل إلا في القليل والنادر، عندما تؤثر هذه الفئة في موازين القوى السياسية، كما نجد الفقهاء يحرمون الاشتغال بالسحر، وأخذ الأجرة عليها، كما حدث مع حركة صالح بن طريف البرغواطي⁽³⁾، بالرغم من أن هناك فروقا واضحة بين السحر والطلسمات والرقى والعزائم والاستحضار والكهانة والتنجيم، إلا أن العامة لا يفرقون بينها⁽⁴⁾، والمهم عندهم هو التعرف على المجهول والمستقبل.

غير أن الالتباس الذي يقع هو بين علم النجوم أو الفلك القائم على قواعد ومناهج وأدوات علمية، وهذا العلم مباح ومطلوب، وقد تطور بشكل لافت بالمغرب الإسلامي خلال القرن الخامس والسادس للهجرة، وبين علم التنجيم المرتبط بالأشكال الغيبية كالعرافة والتنبؤ، وهذا هو العلم المنبوذ والمحرم، لأنه يتدخل في علم الغيب.

تاريخ السحر والشعوذة ببلاد المغرب

2008، ص 261.

(1) ابن خلدون، م س، ص 476.

(2) القرافي احمد بن ادريس، الذخيرة في الفقه المالكي، دار الهجرة، السعودية، 2006، ص 34.

(3) بوتشيش إبراهيم القادري، الإسلام السري في المغرب العربي، ط1، سينا للنشر، المغرب، 1992، ص 44.

(4) ابن الأثير، م س، ج 4، ص 104.

للأسف لم تسعفنا الوثائق المتوفرة لأخذ الصورة الكاملة حول الموضوع، لهذا يرى أحد الباحثين المهتمين بتاريخ الفئات المهمشة أن ظاهرة السحر من أكثر الحركات عرضة للغموض والإبهام والتميش، لأن المؤرخين اعتبروها خروجاً ومروقاً عن الدين، بالرغم من دورها الخطير في رسم ملامح الذهنية المغربية عموماً⁽¹⁾، لذلك لم يفرّدوا لها من النصوص ما يشبع نهم الباحث والمختص، سواء عن قصد أو بدونه.

ولكن من خلال استقراء المادة الهزيلة التي وصلتنا يمكن أخذ صورة عن الموضوع، ومحاولة فهم العلاقات التي ربطت بين الظاهرة وبين منتسبها، وكذا أهدافهم.

الأدبيات التاريخية تشير لتنبؤ الكاهنة

لعل الكاهنة التي طبقت شهرتها الآفاق كان لها نصيب وافر من خلال ما وصلنا من إشارات، والتي رجح المؤرخ المشرقي ابن الأثير تسميتها بهذا الاسم أنها اشتهرت بالسحر والشعوذة والتنبؤ بأحداث المستقبل⁽²⁾، وهو ما أكده الرقيق القيرواني في روايته حين سألها يزيد وأولادها "ما نحن صانعون؟ فقالت لهم الكاهنة: أما أنت يا بن يزيد فسوف تدرك ملكاً عظيماً عند ملك العرب الأعظم، وأما أولادي فسوف يدركون سلطاناً مع هذا الرجل الذي يقتلني ويعقدون للبربر عزا...⁽³⁾

وبغض النظر عن صدق هذه الرواية أو مبالغتها في وصف صاحبة الغيب، فإن الأكيد أن الكاهنة قد عودت قومها على قراءة المستقبل، وربما تعودوا على صدق تنبئها وتكهنها، والأكيد أن أمرها كان مطاعاً، رغم أنها في كثير من المواضع الأخرى قد جانبت الصواب، ومثاله حين أقرت لقومها "أن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة... فما نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى يبأسوا منها ويقل طمعهم فيها"⁽⁴⁾، وهو ربما حجة واضحة عن عجز الكاهنة عن معرفة الغيب المطلق الذي تدعيه لنفسها، وهو ما يُفسر خرابها للأرض والزرع.

(1) بوتشيش، م س، ص 11.

(2) ابن الأثير، م س، ص 222.

(3) القيرواني الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، مصر، 1994، ص 49.

(4) نفسه، ص 48.

ولكن الاستنتاج الأوضح هو سرعة طاعة القوم لها في كل ما تأمر به، حتى ولو كان فيه هلاكهم، كما يعطي انطبعا آخر أن البربر قد تعودوا منها صوابا في الرأي فيما كانت تزعم فيه أحيانا، وهو أمر وارد، حسب رواية ابن الرقيق القيرواني، خاصة فيما يتعلق بأمر معاشهم وقوتهم، وهو ما يدعو إلى الاستنتاج بمدى دور الجانب الاقتصادي في أذهان العوام من قومها، خاصة وأنها جمعت بين التنبؤ وسداد الرأي.

مُدَّعو النبوة صورة من صور التكهن والتنبؤ

تستوقفنا ظاهرة أخرى ببلاد المغرب، وهي امتزاج الشعوذة والسحر وادعاء الغيب بظاهرة ادعاء النبوة، خاصة في القرون الأربعة الأولى للهجرة، حاول أصحابها مضاهاة التشريعات الربانية ومحاكاة القرآن الكريم، منهم متنبؤ برغواطة، طريف أبو صالح البرغواطي الذي عاش في القرن الثاني هجري، والذي عاد من المشرق، وترك ابنه صالح الذي تنبأ لدين أبيه وقال عن نفسه "وصالح المؤمنين" مقتبسا إياها من القرآن الكريم، وزعم أنه المهدي المنتظر، وفرض صوم شهر رجب فقط، وخمس صلوات نهائية، وخمس ليلية، وأتى بقرآن به ثمانون سورة، يقول البكري حول الموضوع "وقرأهم الذي وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين من لدن آدم وأولها سورة أيوب، وآخرها سورة يونس وفيها سور فرعون وقارون وهامان ويأجوج ومأجوج وطلوت ونمرود ...⁽¹⁾، وظهر كذلك متنبئ ورفجومة عاصم بن جميل والذي ظهرت نحلته سنة 127هـ، أيام عبد الرحمن بن حبيب، وكان يدعي النبوة والكهانة في آن، فبدل الدين وغير العقائد، وزاد في الصلاة وأسقط ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآذان، وأوجب قتال العرب واستباح أموالهم⁽²⁾

هذا الأمر يحيلنا دون شك إلى استنتاج سبب آخر مهم، وهو عرقي محض ناتج عن تعصب أو كره أو إحساس بالظلم والتعسف، وهو محاولة كذلك للهروب من التشريعات الدينية التي لم يتعود عليها أسلافه، وادعاء النبوة من خلال الاستئناس بالعصبية دون شك.

(1) عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، مكتبة امريكا والشرق، باريس، فرنسا، 1965، ص140.

(2) سامعي إسماعيل، مدعو النبوة في بلاد المغرب الإسلامي تحدي واستجابة، مجلة الأمير عبد القادر، جامعة قسنطينة، 1423هـ/2003، عدد 13، ص148.

ويظهر امتزاج ظاهرتي السحر والتنبؤ جليا في الساحر المتنبي حاميم، الذي ظهر في المئة الثالثة للهجرة بغمارة، وهي قبيلة بريرية من مصامدة الشمال، وأول من أسس الديانة أو بالأحرى هذا المعتقد أبو محمد حاميم بن من الله، وحاميم هي أوائل عدد من سور القرآن التي تبدأ ب حم، وظهرت ديانة برغواطة بشكل جلي في بداية القرن الرابع مع اختفاء الإمارات التي كانت منبثة، وكذا اشتداد الصراع الأموي الفاطمي على مناطق النفوذ، ولعبت أفكار الخوارج الصفرية دورا مهما في هذا، وبُعد هذه القبائل الجبلية عن مراكز التحضر يُعتبر سببا مباشرا في غرقها في أفكار الجهل والمعتقدات الوثنية القديمة⁽¹⁾

ويُحتمل أن ظهور هذه الحركات كان كرد فعل طبيعي يهدف الى التمسك بعناصر الهوية، كما أن الأزمات الاقتصادية التي كانت تنخر في عرى القبائل والمجاعات والقحط زاد الطين بلة، نضيف له النزعة القبلية التي لازالت تعشش في نفوس البربر، ولم يألوا بعد مفهوم الأمة الواحدة⁽²⁾

علاقة التنبؤ بالفكر الشيعي والدعوة الفاطمية

يسود الاعتقاد عند كثير من فرق الشيعة عن علم الحدثان، الذي ينبأ عن أحداث العالم إلى غاية انقضائه ونهايته، وأن هذا العلم قد استأثر به الأئمة من أبناء الإمام علي كرم الله وجهه، وقد ورثوه عنه بعد أن دونه، كما يقرر ذلك علماءهم كالتهانوي في كتابه المسمى بالجفر، وسمي بكتاب الجفر نسبة الى جلد الثور، الذي كتب عليه، وهو يتضمن تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني، والمروية عن جعفر الصادق، ويبدو أن المهدي بن تومرت الزعيم الروحي لدولة الموحديين قد اطلع عليه أثناء رحلته إلى المشرق الإسلامي⁽³⁾، وكتابا آخر يُسمى بالجامعة، وروج أن ما يحدث في المغرب قد قرر في هذا الكتاب، ولا مناص إلى الحياد عنه وهو قضاء ولا راد له⁽⁴⁾ ومنه

(1) سامعي إسماعيل، م س، ص142.

(2) بوتشيش إبراهيم، م س، ص23.

(3) ابن خلدون، م س، ص446.

(4) الحاجري محمد طه، مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، ط1، دار النهضة العربية،

بيروت، 21983، ص25.

يظهر لنا الدافع السياسي والعقدي من خلال بسط النفوذ الفاطمي في المغرب، وكذا نشر المذهب الشيعي كضرورة حتمية للتوسع المذهبي .

وفي الجانب الاقتصادي كذلك يبدو في ظاهرة ذكرتها المصادر ما يُسمى بالرقادة، وهي من الأعمال السحرية التي تميزت بها منطقة غمارة، حيث كان يُغشى على الرجل يومين أو ثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ، ثم إذا استيقظ كالسكران، يبقى يوماً كاملاً، ثم يأتي بالعجائب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جذب أو حرب، وإن كانت هذه الرواية تحتاج لنظر وثبت⁽¹⁾

ظاهرة السحر والشعوذة تتغلغل في البلاط المرابطي

إذا عرجنا إلى العهد المرابطي، تعطينا المصادر المعاصرة للدولة معلومات مهمة عن اعتناء رجال الدولة بالمنجمين والعرافين، فحاجة الناس إلى علم التنجيم ومعرفة حركة الفلك لتلبية الحاجات الدينية بالدرجة الأولى من أوقات الصلاة ومواعيد الصيام والحج، والأعياد والمناسبات، وأوقات السفر الملائمة لسير السفن، وكذا حركة المد والجزر⁽²⁾، كانت سبباً مباشراً للإهتمام بهذا العلم.

ويبدو أن الأمير يوسف بن تاشفين قد وظف المنجمين لأهداف أخرى، فنبشوا في القضايا السياسية والعسكرية والدينية، حيث تنبأوا له بتعرض العاصمة الجديدة مراکش لخطر الحصار خاصة في مصادر المياه، وكما هو الحال مع الوزير مالك بن وهيب الذي كان عراف الأمير علي بن يوسف، وتنبأ له بظهور المهدي بن تومرت، وأنه سيكون السبب في الإجهاز على الدولة المرابطية⁽³⁾ وفوق هذا تنبأ بأنه سوف يغير شكل العملة من المستديرة إلى الشكل المربع، طبعاً إن صححت هذه الرواية، وسماه صاحب الدرهم المركن، والأمثلة على هذا المنوال كثيرة في المصادر المعاصرة للدولة المرابطية، ولعل سذاجة العامة وجهلهم قد زاد في الإيمان بالخوارق إبان هذا العصر، حتى أنهم مثلاً نسبوا لعبد الله بن ياسين قدرته على تفجير الماء في الصحراء القاحلة، وانقطاع نقيق

(1) البكري عبيد الله، م س، ص 40.

(2) بوتشيش إبراهيم، حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي. دار الطليعة، بيروت، 2006، ص 112.

(3) المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الفرجاني، القاهرة، 1994، ص 272.

الضفادع بمجرد مروره بإحدى البرك رفقة أنصاره⁽¹⁾، وحتى النساء لم يسلمن من تعاطي الكهانة، فزينب النفازية لُقت بالساحرة، ووصفها ابن عذارى أن لها أخبارا مثل الكهنة، وأن الجن يكلمها، ولها في هذا خوارق كثيرة⁽²⁾.

ويبدو أن زوجة الأمير يوسف بن تاشفين التي جمعت بين الجمال الأخاذ وحدة الذكاء، قد اهتمت بالسحر، نظرا لقدرتها للتمكين لزوجها على حساب زوجها السابق أبي بكر بن عمر اللمتوني، فنسب إليها تعاطي السحر، واستحضار الأرواح، واشترطت في زواجها ملكا حتى تُفسح عن الكنوز التي كانت تخبئها وفق طقوس سحرية⁽³⁾.

من هذا المنطلق يبدو الجانب السياسي واضحا في الاستعانة بالظاهرة من خلال محاولة الإبقاء على الحكم المرابطي لأطول مدة ممكنة، وهو ما يذكرنا دون شك بعهد سيدنا موسى عليه السلام حين حذر كهنة فرعون بأن ملكه سيتهوى على يد رجل من أهل بيته أو من قصره.

بالنسبة لتفكير العامة، ينفرد المؤرخ البكري بذكر رواية عن رجل من غمارة من بني شداد، يصفه في نص فريد بقوله: "يحمل معه دلوا مملوءة بالجماجم وأنياب الحيوانات البرية والبحرية، ويجعلها على شكل سبحة، فتتقاطر عليه العامة لاستفساره حول ما سيحدث لهم، فيعلق الجبل على المُستفسر ويحرك الجماجم ثم ينتزعها ويشمها قطعة قطعة إلى أن تمسك يده واحدة منها، فينبئه بكل ما حدث من مرض أو موت أو ربح أو خسران..."⁽⁴⁾.

والعامة من الناس في هذا المشهد يلجئون إلى المشعوذين خوفا من تفاصيل المستقبل، وكل ما يتعلق بجوانبها الاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بحياتهم، وقد ذكر صاحب الاستبصار شخصية عرفت بالشعوذة والمسعى بأبي كسية، والذي كان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه، وإذا عصاه أحد أو خالفه عاقبه بقلب كسائه الذي

(1) بوتشيش إبراهيم، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، 1993، ص 111.

(2) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحددين، لبنان، 1985، ص 18.

(3) نفسه، ص 45.

(4) البكري عبيد الله، م س، ص 103.

كان يلتحف به نحو وجهه فتصيبه مصيبة في ماله أو بدنه⁽¹⁾

السحر والشعوذة في العصر الموحي مطية للسيادة ومصدر للرزق

في عهد الموحدين، تصادف هذه الظاهرة الزعيم الروحي والداعية الأول المهدي محمد بن تومرت، الذي قال عنه المؤرخ عبد الواحد المراكشي الذي عاصره "...كان أوجد عصره في علم خط الرمل مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين"⁽²⁾.

ويقصد المراكشي هنا رحلة المهدي إلى المشرق في طلب العلم، والتي استغلها كذلك لتعلم التنبؤ والكهانة، وربما كانت له معرفة مسبقة بهذا العلم، ولا يستبعد هذا إطلاقاً، إذا علمنا أن هذا العلم قد انتشر بشكل لافت في جنوب المغرب الأقصى، خاصة قبيلة أزقار، غير بعيد عن موطن المهدي بن تومرت، وهذا ما أكدته الرحالة الإدريسي من خلال تجربته الشخصية على حد قوله⁽³⁾، وقد أشارت كثير المصادر الموحدية إلى تكهن المهدي بملك عبد المؤمن بن علي لأرض المغرب من أول وهلة رآه فيها، حين نظر للحيته واستنطق اسمه، رغم أن هذه الرواية تحتاج لنظر وتحقيق.

كما برز خلال هذا العهد عند العوام نوع من المشعوذين، ادعوا فك الطلاسم من خلال النظر في كتف الشاة، وعلم الأكتاف هو علم يبحث في الخطوط والأشكال التي تُرى في أكتاف الظأن والمعز، إذا قوبلت بشعاع الشمس من حيث دلالاتها على أحوال العالم⁽⁴⁾، وتخصص بعض الدجالين المعروفين باسم المتوسمين في تفسير أسرار الطبيعة المكنونة في الكتف، "وهذه الهالة سخرها المهدي بن تومرت كذلك لاستقطاب قاعدة شعبية عريضة من العامة"⁽⁵⁾، حيث نجده مثلاً في سياق لقائه بعبد المؤمن بن علي الكومي قد ردد اسمه، ثم بشره بأنه سيملك أرض المغرب.

كما برع الزناتيون في علم الأكتاف، حيث كانت لهم معرفة وحذق وكياسة ولا يُدرى

(1) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول، 1965، ص 192.

(2) المراكشي عبد الواحد، م س، ص 243.

(3) الإدريسي الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، 1994، ص 48.

(4) حاجي خليفة، كشف الضنون عن أسماء الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة، بيروت، د ت، ص 141.

(5) بياض عبد الهادي، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس، ط 1، دار الطليعة، بيروت، 2008، ص 151.

من الأمم أعلم منهم بعلم الكتف⁽¹⁾، واتخذ كثير من الناس السحر والشعوذة وسيلةً للتكسب السهل والسريع، بعد أن ضاقت عليهم سبل الرزق، وقد نقل لنا لسان الدين بن الخطيب نصاً بالغ الأهمية حول أحد المنجمين وهو واقف بين الناس ممتدحا قدرته الكبيرة في التنجيم وقراءة المستقبل، متباهياً بتضلعه في علوم الغيب وقراءة المستقبل، يتكلف سجع الكلام أمام مرتاديه، ومما قاله هذا المدعي: أنا استذكرت بالأنبار، فرحة الإقبال وترحة الإدبار، وطالعت أقليدس فاستنبطته، وصارعت المجسطي فجسطته، ولحظت التحليل بحلّ ما عقده، وانتضيتته ما مطل به الجهابذة فنقّده، وعابنت زحل حين استقلّ على بعيره ورحل...⁽²⁾

ويبدو من خلال هذا النص أن المنجمين يبالغون في السجع المتكلف، ويمتدحون قدراتهم بشكل لافت حتى يثق فيهم ضعاف العقول والنفوس، ويتخذون من الأسواق أماكن لجمع الناس حولهم، ولم تشر المصادر الموحدية المتوفرة إلى اتخاذ الخلفاء الموحدين لإجراءات خاصة للحد من عمل هؤلاء المشعوذين، رغم أن بعض الخلفاء قد أشار إلى جميع المظاهر السيئة المنتشرة في الدولة من دور البغايا وشرب الخمر وغيرها، كما أشار إليها بالتفصيل الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي في رسالته إلى ولاة الدولة، والمشهورة برسالة الفصول.

والأكثر من هذا، أن بعض الخلفاء والأمراء قد اتخذ لنفسه منجماً خاصاً، كما حدث مع الأمير الموحد أبي الحسن السعيد، الذي نهاه منجّمه غزوز عن الخروج إلى إفريقية⁽³⁾، وبالموازاة مع تصرف الخاصة مع منجمهم، فقد حرّموا الأمر على العوام، وراقبهم وعاقبهم أحياناً، كما اتهموا كل من حاول الثورة على المخزن بأنه يتعاطى السحر والشعوذة، وأنها مطية من أجل الوصول للسلطة، وشاع الأمر عند العامة بإنكارها وتنكيرها، فمن بعض الأمثال الشعبية المتداولة في الغرب

(1) بن النية رضا، صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين، مذكرة ماجستير في

التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، 2006/2005، ص 61.

(2) ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي،

القاهرة، 1973، ص 285.

(3) ابن عذارى، المراكشي، م، ص، ص 385.

الإسلامي عموماً، وبالأندلس خصوصاً، التي تدم السحر ومتعاطيه قولهم: ضرابة الخفيف المقرع والتكتيف⁽¹⁾، والخفيف يعني الرصاص، ويستخدم في الزجر والسحر، وهي طريقة لمعرفة الغيب، وامتدت هذه الطريقة إلى أوروبا كذلك عن طريق سحرة الأندلس⁽²⁾، كما أن المحتسبين قد عاقبوا المشعوذين بالضرب المبرح والتقييد بالحبال كما بين الفقهاء تحريم الاشتغال بالكهانة وأخذ الأجرة على ادعاء الغيب من خلال النوازل الواردة إليهم من العامة⁽³⁾، وهنا يظهر لنا ذلك التناقض بين الموقف الرسمي للخلفاء الموحديين، وبين الواقع الفعلي لهم، ولعل مرد ذلك دون شك هو الرغبة الجامحة في الاحتفاظ بالملك والبقاء فيه، والبحث عن الأسباب المبقية له، مهما كانت الوسائل الموصلة إليه، عملاً بالقاعدة: الغاية تبرر الوسيلة.

خاتمة:

من خلال هذه النماذج التاريخية التي استوقفناها، يبدو أن ظواهر السحر والشعوذة والتنبؤ لم تكن وليدة لحظة تاريخية بعينها، ولم تكن رهينة سبب واحد، ولا مطية لهدف رئيس، حيث سجلت هذه الظواهر تجذراً وحضوراً قديماً في أرض المغرب، حتى عدت من الموروثات، بل أن الاستئثار بالسلطة والقيادة المعنوية استند أحياناً كثيرة إلى النبوغ في السحر والتنبؤ، ومرده شعور الرعية بالأطمئنان للمستقبل، مع صدق الفراسة والرأي، كما أن توجه العامة إليها يرجع لأسباب كثيرة، أهمها ذلك التفاوت المعرفي والطبقي في المجتمعات الإسلامية قبل الفتح وبعده، والفقر والحاجة الاقتصادية والعوز كان عاملاً حاسماً للتوجه إليها، إضافة للخوف من المستقبل، والتطلع نحو الأفضل، وبعد دخول الإسلام بقيت هذه الظواهر متغلغلة عند العوام والخواص، والأخطر أن البعض استعمل الدين الإسلامي كمطية لتثبيت أهدافه باستعمال السحر والتنبؤ، وربما ساعد المناخ العام المرتبط بالسذاجة والجهل على المضي نسبياً في هذه المشاريع، كما استعمل من أجل تثبيت مذاهب معينة ونشرها، أو من أجل نشر دعوة

(1) الزجالي، أمثال العوام في الأندلس، فاس، منشورات وزارة الدولة للشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، فاس، 1971، ج2، مثل رقم 1632.

(2) دوزي رينهارت، تكملة المعاجم العربية، منشورات وزارة الثقافة، العراق، ج3، ص385.

(3) الونشريسي أبو يحيى، المعيار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص56.

دينية، أو إسقاط نظام، أو إطالة عمر آخر، وما تقرب المتنبتين والسحرة للبلطات إلا دليل واضح على ذلك، حيث وجدوا مناخا ملائما لهم، فتدخلوا في السياسة بتواطؤ من الخاصة، وامتهنوها اجتماعيا بتواطؤ العامة، هذا الأمر جعل هذه الظاهرة متواصلة لحين من الدهر، مع بقاء أسباب وجودها.

ويمكن الخروج بمجموعة من الاستنتاجات الهامة حول ظاهرتي السحر والشعوذة بالمغرب الإسلامي عموما، أهمها أنه لا يمكن الجزم بأحكام قطعية حول الجزئيات، لأن الروايات التي وصلتنا قد تكون عرضة للتشويه والزيادة والتعامل، وقد تكون أحيانا رواية واحدة لا يمكننا من خلالها المقارنة والاستنتاج، أو تكون النية مبيتة في تفسير غير بريء، كما فعل بعض المستشرقين حين رأوا الظاهرة حيننا مشروعا إلى الوثنية القديمة⁽¹⁾، كما لا يمكن دراسة الظاهرة بمعزل عن الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والإثنية التي سادت في أوساط القبائل البربرية.

استعمل السحر والشعوذة والتنبؤ لإسكات العامة حول كثير من التساؤلات التي يطرحونها عن وضعهم المعيشي، كما استعمل كثير من سكان المغرب الإسلامي طيلة قرون متواصلة السحر والشعوذة كحرفة تضمن لهم دخلا جيدا، واستغلوا سذاجة العامة للكسب الحرام.

ورغم التحريم الواضح بادعاء الغيب، والعقوبة الزاجرة لمزاولها، إلا أن بعض القادة السياسيين والروحانيين استعمله كوسيلة للوصول إلى الحكم، أو استعماله كمطية للتأثير على العامة الساذجة، على غرار المهدي بن تومرت زعيم الموحدين، أو كوسيلة للبقاء في الحكم كزوجة يوسف بن تاشفين، أو كوسيلة لنشر مذهب أو اعتقاد، كما فعل الفاطميون بأرض المغرب.

يتبين جليا أنه لا يمكن الحديث عن هذه الظواهر بمعزل عن الإرث الحضاري لأهل المغرب على مر عصوره القديمة، وإن كنا لا نبالغ في هذا العامل، كون الدين الإسلامي قد قلص كثيرا من الترسبات التي بقيت عالقة في نفوس أهل المغرب، ولا يزال موضوع السحر والشعوذة والتنبؤ عموما، بحاجة ماسة وملحة لأبحاث ودراسات جادة من أجل

(1) ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص55.

استجلاء كثير من البقع التي مازالت معتمة حول الموضوع، كما أن حيثيات هذا الموضوع ومادته العلمية بشقيها: العوام والخواص، يجعله من المواضيع التي لها تأثير على مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وحتى الدينية في آن، كما أن الاستعانة بعلوم أخرى، على غرار علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، يعد ضروريا من أجل تفسير كثير من الظواهر التاريخية.

المراجع

الكتب:

- إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر، المغرب، 1992.
- إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، 2006.
- إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والاندلس في عصر المرابطين، المجتمع الذهنيات الأولياء، دار الطليعة، بيروت، 1993.
- إسلام عبد الرحيم السكري، السحر بين الحقيقة والوهم، مكتبة دار الكتب الجامعية الحديثة، بيروت، 1990.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1988.
- ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
- الإدريسي الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، 1994.
- البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة أمريكا والشرق، باريس، 1965.
- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، بيروت، دار العلوم الحديثة، د.ت.
- ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973..
- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية

- للكتاب. الجزائر، 1984.
- الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، دارالفرجاني للنشر والتوزيع، مصر، 1994.
- دوزي رينهارت، تكملة المعاجم العربية، منشورات وزارة الثقافة، العراق، 1981.
- الزجالي، أمثال العوام في الأندلس، منشورات وزارة الدولة للشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، فاس، 1971.
- عبد الهادي بياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس ق6-8هـ، دار الطليعة، بيروت، 2008.
- علي عبد العال الطهطاوي، أسرار السحر والاستخارة وضرب الرمل وقراءة الفنجان، دارالروضة للنشر والتوزيع، مصر، د ت.
- عمر سليمان الأشقر، عالم السحر والشعوذة، الأردن، دار النفاثس، 1997.
- القرافي أحمد بن ادريس، الذخيرة في الفقه المالكي، دار الهجرة، السعودية 2006.
- الكتاني، تبليغ الأمانة في مضار الإسراف والتبرج والكهانة، دار ابن حزم، لبنان، 2008.
- الحاجري محمد طه، مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، دار النهضة العربية، بيروت، 1983.
- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1985.
- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دارالفرجاني، القاهرة، 1994.
- الونشريسي أبو يحيى، المعيار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.
- الأطروحات الجامعية:**

- بن النية رضا، صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، 2006/2005.

المقالات:

- إسماعيل سامعي، مدعو النبوة في بلاد المغرب الإسلامي تحدي واستجابة، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، جامعة قسنطينة، العدد الثالث عشر، شهر ذي الحجة، 1423هـ/2003.